

كان الأمويون وما زالوا من أخطر اعداء النبي (ص)، وانهم اعتنوا الاسلام في آخر ساعة مرغمين ثم سنحت لهم الفرصة بأن يحولوا لأنفسهم ثمرة حكم الدين فأصبحوا القائمين عليه. المغتصبين لسطانه، فأعادوا الاسلام والمسلمين الى الجاهلية الأدنى، بهذه المشاعر ونظائرها واجه المسلمون الدولة الأموية، فأراد معاوية ان يتغلب على هذا الشعور العام بسلاح الدين نفسه، كما أراد التوصل لتحطيم ما أعدائه من سلطان روحي على المسلمين عن هذه الطري ايضاً، فد وضع جماعة من الصحابة وآخرين من التابعين روايات بيحة في الامام علي (ع) تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم جعلاً يُرغب في مثله ومن هؤلاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وسمرة بن جندب، ومن التابعين عروة بن الزبير.

أ- ظاهرة وضع الحديث

لقد أوجد معاوية واصحابه التبرير الديني لسلطان بني أمية او لكبح الجماهير عن الثورة برادع داخلي هو الدين نفسه، فاختلوا الاحاديث المختلفة التي تتضمن الطعن في علي (ع) واهل بيته ونسبها الى النبي (ص) مابل الإكثار من فضائل كل من خالف الامام علي (ع) من الصحابة. وكان معاوية يبعث بالصلوات والكساء والحباء والقطائع لكل من لف حديثاً بهذا الشأن، فكثرت المتنافسون على الدنيا، فرويت اخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها ورويت من على المنابر والكتاتيب وحلقات الدرس والمواعظ ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان اعظم الناس من ذلك بلية القراء المرأؤون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الاحاديث فيحفظوا بذلك عند ولائهم ويقربوا مجالسهم. فقد ذكر ابن ابي الحديد: ((فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسين بن علي عليه السلام فازداد البلاء والفتنة)).

لذلك قال ابن عرفة المعروف بـ "نفظويه" - وهو من اكابر المحدثين واعلامهم - : ((ان اكثر الاحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة أفتعلت في ايام بني أمية تقريباً اليهم بما يظنون انهم يرغمون به أنوف بني هاشم)).
ووضعت الاحاديث التي تخدر المسلمين من الثورة ضد الظلم والظالمين والرضوخ لهم. فقد رُوِيَ عن عبد الله بن عمر انه قال: ((قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: انكم سترون بعدي أثره وأموراً تنكرونها، قالوا، فماذا تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدوا اليهم حقهم، وسلوا الله حقكم)).

وقال مرة اخرى: ((من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإن من فارق الجماعة شبراً فما مات إلا ميتة جاهلية)).
وقال ايضاً: ((ستكون هنات وهنات، فمن أراد ان يفرق أمر هذه الأمة وهي جمع فاضربوه بالسيف كائناً من كان)).
وهناك لون آخر في التضييل الديني استخدمه الأمويون لتثبيت ملكهم وبرعوا في استخدامه وهو تأسيس الفرق الدينية السياسية التي تقدم للجماهير تفسيرات دينية تعزز من سلطة الأمويين وتخدمها وتبر اعمالها.

ب- تأسيس فرق باسم الدين

من هذه الفرق "فرقة المرجئة" التي اعتبرت الايمان عملاً قلبياً خالصاً لا يحتاج الى التعبير بفعل من الافعال، فيكفي الانسان ان يكون مؤمناً بقلبه ليعصمه الاسلام ويحرم الاعتداء عليه، فهم يعلنون: "لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة" و "ان الايمان الاعتقاد بالقلب وان اعلن الكفر بلسانه وعبد الأوثان ولزم اليهودية والنصرانية ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الايمان من اهل الجنة".
والنتيجة ان الأمويون مؤمنون مهما ارتكبوا من الكبائر، وان حكومتهم الجائرة حكومة شرعية لا يجوز الخروج عليها.
وقبالة هذه الفرقة نشأت فرقة اخرى اخذت ابعاداً كثيرة هي "فرقة القدرية" القائلين بحرية الإرادة والإختيار، وان الانسان هو الذي يختار نوع السلوك والعمل الذي يمارسه في حياته، فشكلت هذه الفرقة خطراً كبيراً على الأمويين الذين كانوا يخافون من رقابة الأمة عليهم وعلى تصرفاتهم، لذلك اضطهدوا اصحاب هذه العقيدة وناصروا العقيدة المضادة لهم "عقيدة الجبر" التي كانت تلائمهم في الميدان السياسي لأنها توجي الى الناس بأن وجود الأمويين وتصرفاتهم مهما كانت شاذة وظالمة ليست سوى قدر مرسوم من الله ولا يمكن تغييره او تبديله، فلا جدوى اخرى من الثورة عليهم.

لذلك كان معاوية بن ابي سفيان يتظاهر بالجبر والارجاء لأجل تبرير أفعاله أمام الملأ لأنها مقدره لا سبيل الى تبديلها، في الوقت نفسه فهي غير قادحة فيه باعتباره حاكماً دينياً.

يقول الدكتور أحمد أمين: "بنو أمية - كما يظهر - كانوا يكرهون القول بحرية الإرادة لا دينياً فقط ولكن سياسياً كذلك، لأن الجبر يخدم سياستهم، فالنتيجة للجبر ان الله الذي يُسِرُّ الأمور قد فرض على الناس بني أمية كما فرض كل شيء، ودولتهم بقضاء الله وقدره، فيجب الخضوع للقضاء والقدر".

كان هذا الخداع والتخدير الديني أحد أركان السياسة الأموية الذي تكفل بإيجاد تبرير ديني للوضع الاجتماعي الشاذ الذي كان عليه المجتمع الاسلامي، أُريدَ منه حمل الجماهير المسلمة على السكوت عن النقد والقيود عن محاولة اي تغيير الى وضع مستو احسن وبذلك يخفف الشعور بالإثم من ضمير الناس، هذا الشعور الذي يدفع الى الثورة حين يبلغ درجة ضغط عالية، وعندما يضمحل الشعور بالإثم يستقر المجتمع نهائياً.

خامساً: إظهار الحقد على النبي (ص) والعداء لأهل بيته (ع)

مكث معاوية إبان خلافته أربعين جمعة لا يصلي على النبي (ص)، وحينما سُئِلَ عن ذلك قال: ((لا يمنعي عن ذكره إلا أن تشمخ رجال بأنافها))، وَسَمِعَ المؤذّن يوماً يقول: "أشهد ان محمداً رسولُ الله" فاندفع قائلاً: "لله ابوك يا ابن عبد الله لقد كنت عالي الهمة ما رضيت لنفسك إلا ان يُقرَنَ اسمك باسم رب العالمين".

لذا سخر جميع اجهزته للحط من قيمة اهل البيت واستخدم اخطر الوسائل في محاربتهم وإقضاءهم عن واقع الحياة الاسلامية، وكان من بين ما استخدمه في ذلك:-

- 1- تسخير الوعّاظ والقصاصين ليحولوا القلوب عن اهل البيت عليهم السلام.
- 2- افتعال الاخبار والاحاديث الكاذبة على لسان النبي (ص) للحط من قيمة اهل البيت (ع)، فاخْتَلَقَتْ مئات الاحاديث لذلك.
- 3- استخدام سب أمير المؤمنين (ع) واهل بيته على منابر المسلمين وفي نواديه العامة والخاصة، واوزع لعماله وولاته ألا يذيعوا اي فضيلة من فضائلهم، فسرى سب الامام في جميع انحاء العالم الاسلامي آنذاك.

سادساً: فرض ولاية العهد

كانت الخلافة ايام الخلفاء ابي بكر وعمر وعثمان ذات مسحة اسلامية وكانوا يحكمون تحت شعار خلافة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، لكن معاوية بعد توليه السلطة لم يجترئ على تحدي الرسول (ص) ورسالته بشكل علني وصريح في بداية حكمه، إذ كان يستغل المظاهر الاسلامية لإحكام القبضة وتحقيق المزيد من السيطرة على المسلمين، لذلك وُصِفَ معاوية بالدهاء لأنه كان يلبس باطله لباساً إسلامياً، فبعد استشهاد الامام الحسن المجتبي عليه السلام سنة (٥٠هـ) عمد الى ابتكار ولاية العهد وهو على قيد الحياة وبمشورة وتحريض من المغيرة بن شعبة الذي عزله معاوية عن ولاية الكوفة وأبدله بسعيد بن العاص الأموي من أجل أن يبقى بمنصبه كوالٍ، الذي حاز عليه مرة اخرى بعد اقتناع معاوية بفكرة ولاية العهد لابنه يزيد وتعهده المغيرة من أخذ البيعة من أهل الكوفة، ولقد قال المغيرة عن ذلك: ((لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد للغاية على أمة محمد وفتقت عليهم فتقاً لا يُرتَقَى أبداً)).

فلم يسبقه في هذه الخطوة سابق وتبعه كل من جاء بعده من لاحق، فَعَدَّ ذلك هتْكاً صريحاً للقيم الاسلامية واستهتاراً واضحاً لعرف المسلمين لما عُرِفَ أن الخلافة الاسلامية ليست حكماً قيصرياً ولا كسروياً ينتقل بالوراثة، مضافاً الى ذلك ان فرض البيعة ليزيد على المسلمين كان جريمة كبرى ذات ابعاد اجتماعية وسياسية خطيرة تنتهي بتصفية الاسلام ومحوه.

نُظِمَ الحكم والإدارة في عهد معاوية

ونتناول الجانب الآخر من حكم معاوية ونقول بحيادية تامة انه استحدث بعض التغييرات وادخل نظم جديدة تتفق مع ظروف الدولة وطبيعة البلاد، فقد أُلغِيَ الكثير من المظاهر التقليدية التي كانت سائدة في الأمصار الاسلامية وأقام جهازاً حكومياً منظماً يتضح فيه النمط البيزنطي، حيث كان السلوك الشخصي لمعاوية ومظاهر الأبهة التي حرص على التمسك بها واضحة نتيجةً لمجاورته الدولة البيزنطية لذلك أقام قصرأ يقيم فيه أطلق عليه اسم (قصر الخضراء) وهو مجاور للمسجد الجامع في دمشق، واستحدث المأذنة كما استحدث (ديوان البريد) حرصاً على سرعة وصول الاخبار الى مركز الخلافة في دمشق، فتم تقسيم الطرق منازل يتم فيها استبدال الخيل للسرعة، وبذلك اصبح اداة هامة في ادارة شؤون الدولة.

وأنشأ معاوية (ديوان الخاتم) وكان من أكبر دوواين الدولة ويقوم موظفوه بنسخ أوامر الخليفة وإيداعها بعد ان تحزم بخيط وتختم بخاتم صاحب هذا الديوان، كما هو الحال اليوم في قلم "الأرشف" او السجلات. أما بالنسبة للإدارة المالية فقد عهد معاوية الى جماعة من اهل الذمة وهم (النصارى واليهود) ممن عُرِفُوا بكفاءتهم، وبذلك يكون معاوية اول من عين النصارى في مناصب الدولة.

وتحقق في عهد معاوية العديد من المشاريع الزراعية والإروائية في بلاد الشام والحجاز والعراق وتضاعفت عطايات الجُند نتيجةً لزيادة موارد الدولة الاسلامية، كما أنشأ معاوية البحرية الاسلامية منذ ان كان والياً على الشام، كما اهتم بترميم الحصون الساحلية في (عكا وصور) وأقيمت مراكز لصناعة السفن في كل من (صور وصيدا والاسكندرية) وبفضل الأسطول العربي الاسلامي تمكن المسلمون من فتح جزيرتي (قبرص ورودرس).

وقامت سياسة معاوية في إدارته للأمصار الاسلامية على تعيين الولاة لمدة من الزمن ثم يعمل على عزلهم من اجل تثبيت دعائم خلافته. وكان من أشهر ولاته (مروان بن الحكم) الذي ولاه المدينة المنورة ومكة والطائف ثم عزله وولي (سعيد بن العاص) ثم عزله وولي (مروان بن الحكم) وهكذا كام يبدل احدهما بالآخر على ولاية المدينة المنورة، أما مصر فقد أعطاها طعمة ل (عمر بن العاص) جزاءً مساندته يوم صفين، وبقي والياً عليها حتى وفاته سنة (٤٣هـ)، وولي على الكوفة (المغيرة بن شعبة)، أما البصرة فولى عليها (عبد الله بن عامر) ثم عزله وولي عليها (الحارث بن عبد الله الأودي) ثم عزله وولي عليها (زيد بن أبيه) لحين وفاته، وبعد وفاة المغيرة جمع له ولايتي البصرة والكوفة، ثم ولى ابيه (عبيد الله بن زياد) البصرة وجُمِعَ له البصرة والكوفة في زمن يزيد بن معاوية.

المصدر: حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني.